قضية.. و..؟ مليون قاض!

زهيرة البيباني

كان الزمان . ليلة الخامس من يوليو عام ١٩٥٤ . وكان المكان . . إحدى القرى الأمريكية الصغيرة على شاطئ بحيرة واسعة . حيث نام المأمور في هدوء تام . لم يقطعه إلا صوت حارسه الخاص في الثالثة صباحا . . فيقوم فزعا ليتبين بلاغا .

لقد وقعت مأساة في منزل الطبيب المعروف « أرمسترونج » .

جاء البلاغ تليفونيا . من الطبيب نفسه . قال فيه :

« زوجتي فارقت الحياة . كانت في حجرة نومها . . . إنه شيء فظيع » .

وصل المأمور كان الطبيب يرتدي بنطلونه . كان عاري الصدر . وقد غطت الكدمات وجهه فبدا تائها . ثم تطلع إليه المأمور : شاب في الثانية والثلاثين . أنيق . تهافت عليه النساء . وهو في هذه البلدة الصغيرة قد كون لنفسه مكانة مرموقة .

لقد فارقت زوجته الحياة . عانت بطريقة بشعة بينما كانت تنتظر مولودا .

كانت ممددة في فراشها . وقد غطت الدماء جسدها كله . وبدا وجهها مشوها تماما من أثر الضربات التي توضح أن القاتل انقض عليها بمنتهى العنف .

أخذ الطبيب يشرح للمأمور أنهم أقاموا ليلة الحادث . بمناسبة عيد الاستقلال . حفلة بسيطة دعوا إليها بعض الأصدقاء وبعد انصراف المدعوين صعدت زوجته إلى الدور العلوي حيث حجرة نومها . بينما بقي هو بحجرة الصالون يشاهد التليفزيون .

فعلة النوم وهو جالس في مكانه . وفي حوالي الثانية صباحا استيقظ فزعا على صراخ زوجته . فصعد السلم جريا . فإذا برجل أشعث يقبض بنفسه عليه . ويتناول الرجلان الضربات . ليسقط الطبيب في النهاية فاقدا الوعي . وعندما أفاق كان الرجل قد فر هاربا . وكانت زوجته قد فارقت الحياة .

كان الرجل الأشعث في حالة هياج . لم يتبين الطبيب ملامحه . خاصة أن المكان كان مظلما . ولم يعثر على السلاح الذي ارتكبت به الجريمة .

أخذ المأمور يتأمل الطبيب الشاب دون أن يدري . فهناك عدة تساؤلات في حاجة إلى إيضاح . وسوف يكتشف التحقيق عن ثغرات أخرى : فإذا لم يستيقظ ابن الطبيب - وهو طفل في العاشرة من عمره - على صراخ أمه ؟ ولماذا لم يسمع الجيران نباح الكلاب عديمة الفيلا ؟ كما أن الطبيب قد استغرق بعض الوقت قبل إبلاغ البوليس . فلماذا ؟ ثم أين اختفى الجاني الطبيب وسترته وكان يرتديها في المغلق . تلك الليلة ؟ وكيف لم يترك القاتل خلفه أي دليل أو أثر أثناء هروبه ؟

بقيت هذه الأسئلة بلا إجابات محددة . ولذلك كان الطبيب . من وجهة نظر البوليس مذنبا من الدرجة الأولى . فكان أن اهتم البوليس وعكف على البحث عن دافع محدد . ولكن بدون جدوى . ولذلك حاول إعداد تحليل أو شرح مقنع لارتكاب الجريمة .

فالطبيب الشاب هو ثالث أبناء « أرمسترونج » الطبيب المعروف . الذي ملك مستشفى كبيرا يضم حوالي ٢٠٠ سرير . وأبناؤه الثلاثة أطباء متشابهون في الشكل . العود الفارع . والأناقة . والشعر الذي يميل إلى الشيب .

والعائلة ثرية ومحبوبة ومعروفة وسارها لا يختلف كثيرا . عن سر الوفاء . ويتمتع أفرادها أي أن المستوى الاجتماعي واحد . وتعيش أعضاء واحدة . وكان الطبيب الشاب يقدم خدماته الطبية للعمال . أما زوجته الشابة فركزت جهودها في وقت فراغها في الأعمال الخيرية . لكن الحقيقة تقول : إن حياة الطبيب وزوجته لم تكن مستقرة أو ناجحة . كما كان يبدو عليها . فقد أشيع عن الطبيب الشاب تعدد علاقاته النسائية . وعلى الأخص علاقته بمساعدته وبذلك جاءت غريبة الاتهام كالآتي : « تخلص الطبيب أرمسترونج من زوجته بعد نزاع نشب بينهما فجأة لقد قتلها حتى يقيم حياة جديدة مع مساعدته » .

إنه افتراض بسيط وساذج لكنه الوحيد الذي يمكن طرحه الآن . وأثناء المرافعة أكد محامي الطبيب أنه ليس من حق النيابة إلقاء القبض على الطبيب . دامت لا تملك الأدلة الواضحة .

ولكن عندما تمسك الطبيب بروايته للأحداث التي تبعد عن المنطق . صدر الأمر بالقبض عليه .

كما أجمعت هيئة المحلفين على اتهامه وفتح التحقيق لأهم قضية عرفتها أمريكا . وأحدثت دويا هائلا . وعقدت جلساتها بمحكمة الجنايات . وكان القاضي يعرف أن القضية بصعوبتها سوف تطول . فقد مرت به قضايا كثيرة صعبة . إذ أنه في السبعين من عمره أي قريب من سن المعاش .

كما أن هذه القضية بالذات تناولت مشكلة هامة وهي أزمة الضمير الأمريكي في مواجهة مشكلة الطلاق . فقد اتهم الطبيب الشاب بقتل زوجته حتى يتخلص منها . بدلا من أن يطلقها . وأمام هذه القضية انقسمت أمريكا إلى ثلاث جماعات .

أولاها . الذين يعتبرون أنه من حق الزوج حياة زوجته . دون إثارة مشكلات . بشرط ألا تدري الزوجة .

وثانيها . الذين يعتقدون أن الزوج عندما يجد زوجته فهذا يعني أنه لم يعد يحبها . وهنا يجوز الطلاق . وهناك الفريق الثالث وهو الذي يقر أن حياة الرجل لزوجته حرمة في حق الذات الأمريكية . وحتى تتحاشى هيئة المحلفين هذا المنزلق كان كل شاهد يسأل عما إذا كان يعتبر الخيانة الزوجية أشد جرما من القتل ؟ .

فإذا تردد الشاهد ثانية واحدة قبل الإجابة . يوقف المحامي دعوته . وعندئذ لابد من ثلاثة أيام أخرى لتشكيل جلسة جديدة . وهيئة المحلفين تتكون من سبعة رجال وخمس نساء . والمجموعة كلها شابة . تمثل الطبقة الأمريكية المتوسط من صغار تجار وعمال ميكانيكيين وسكرتيرة وباحثة . وكانت أنظارهم جميعا على المتهم .

خلف القضبان ظهر المتهم الشاب بملابسه السوداء . وقميصه الأبيض الناصع . وكان جادا يدعو إلى الاحترام . بشوش الوجه . واضح التقديرات . وكان له تأثير طيب على القضاة . كما كان لمحو العام للمحاكمة مرعا . حتى قبل أن تبدأ الجلسات . ولكن الطبيب الشاب لم يكن يتمتع بحب الشعب الأمريكي أو الصحفيين . لأنه يمثل تلك الطبقة البرجوازية المخيفة .

وبدأت الجلسة كأنها حفل استعراضي . أطلق النور . وظهرت آلة العرض السينمائية بأضوائها . وعلت أصوات المهنة القضائية . وفي القاعة حشد الجمهور الذي تحوم السينما والكتاب . وجمهور غفير . ونظر الطبيب المتهم إلى الأرض وأخفى وجهه بين يديه . وظهرت آثارها واضحة عندما أضيء النور من جديد . وقام وكيل النيابة يعرض صور الطلقات من على المائدة الرخامية بالمشرحة . إنها صور ملونة لجمجمة المجني عليها . والمرفقة . فبجملة لـ ٣٥ طلقة بمسدس لم يعثر عليه . وعند تعاقب الضوء أخذ الطبيب الشرعي يشرح بصوت رتيب طبيعة الجروح

« الإصابة القاتلة عاشرة . التي تروتها الآن جاءت من ضربة بآلة حادة . هشمت جزء العظام . على عكس الضربة الثالثة التي كان سببها أداة صلبة أحدثت بعض الرضوض . وإنها بالاحظون فإن هذا الثبوت العامل في البشرة يعرف باسم الجروب الزرقاء » .

وبعد أن فحصت الجمجمة بهذه الطريقة العلمية الدقيقة تتابع الشهود . الأقل ٢٥ شاهدا . مشهادتهم دون إثبات حقيق أو إدانة للمتهم . ولكن الدفاع من جانبه كان يعلم أنه ليس هناك دليل واحد على صحة أقوال الطبيب

استمع الطبيب بكل انتباه وأدب دون انفعال لأقوال الشهود . ثم استدعى محاميه بإشارة من أصبعه . وتحدث إليه بصوت خافت . وانتبه لسيدات المهنة القضائية . والأفراد أسرته فلم يكن هناك ما يثير الاهتمام في تلك المواجهات القضائية الطويلة . إلا تماسك وتضامن عائلة « أرمسترونج » حيث كان الإخوة وزوجاتهم أحسن دفاع عن المتهم .

ذلك أن تصرفاتهم كلها كانت بأنه صادق في أقواله . وأنهم مقتنعون ببراءته !

وجلس أفراد عائلة القتيلة إلى يمين القاضي . وظهر التناقض واضحا بين العائلتين . وكانت الزوجة المسكينة ذات وجه مطلق . يتيمة الأم منذ الصغر . فنشأت في بيت خالتها بعيدا عن الأب الذي انشغل بزواجه الثاني . أي أن الأسرة مفككة . والخيانة الثانية تقل بكثير . وأن التربة لم تكن على الوجه الأكمل ولذلك فلا أحد من عائلة « أرمسترونج » كان يحترمهم أي احترام . ولا نظرة واحدة من نظراتهم الباردة

أخذ التحقيق أخيرا دائرة محددة حول مساعدة الطبيب . وهي امرأة سمراء . تم استدعاؤها للشهادة . وقد انتظر الاتهام ومحامو الدفاع الكثير من هذه الشهادة بالذات . وتقدمت مساعدة الطبيب أمام المحكمة . تماما كما لو كانت مسوقة إلى حكم الإعدام . فكانت

يرتدي ثوبا مختلفا من الحرير الأسود ، تزينه بالة من الزهرة البيضاء ، بلا مكياج على الوجه ، حتى إنه لم يبد عليها أنها امرأة مثيرة يتهافت عليها الرجال . وبدت كممرضة مخلصة في عملها . ولكن من ذلك النوع الذي يشكل خطرا مستمرا لكل حياة زوجية مستقرة ولو ظهر أي الفعال تجاه عشيقها ، وراحت تروي قصتها .

نعم ، لقد قضيت مع الطبيب في الربيع الماضي أربع ليال في منزل أحد أصدقائه في تونس الجنوبي . وسألها القاضي بالتحديد عما إذا كانت قد شغلت غرفة حجرة الطبيب . وبلا تردد قالت ببساطة : إنها كانت غرفة الطبيب ، وكان هذا منذ زمن وكانا يلتقيان مرارا في سيارته أو في عيادته الخاصة .

وظل مدى أكثر من ساعة ظلت الشاهدة ترد على أسئلة كأنها تطفل . فتحدثت كأنها تروي قصة إنسانة أخرى . واستطاعت أن تتخلص بكل لباقة من هذه المحنة ، دون أن تأتي بدليل واحد ضد الطبيب الشاب . وقالت إنها كانت تعلم أنه متزوج ، وأنه يحب زوجته . ولكن من وقت لآخر كانت تنتابه رغبة في الطلاق إلا أنه لم يقرر أو يحدد هذا بالفعل . وهنا سألها القاضي عما إذا كان الطبيب ، بعبارة هي الأخرى ؟ فتردد قليلا ثم قالت : إن عطاياه لم تحمل إليها هذا المعنى أو دليلا حقيقيا على هذا الحب .

وأصيب الاتهام وجمهور الحاضرين الذين حضروا ليشاهدوا احتلال حياة أسرة غنية أمل كبيرة . إذ وجدوا أنفسهم فجأة أمام إحدى بطلات الشارع الخلفي . أي المرأة التي تجري وراء حب مستحيل . فتخطو إلى الخيانة الزوجية في المجتمع الأمريكي داخل سيارة أوبن جلدران حجرات يتبادلها الأصدقاء . ولم يطلب الدفاع أكثر من هذا .

وكان تساؤل الجميع : ما هو الدافع إذن الذي يجعل الطبيب يقتل زوجة عادات الشاهدة كانت له كلها شاء ؟

أما الشاهدة فكانت قد غادرت القاعة وقد ألقت في معطف من الفرو ، الكيوون ، الظلال ، بعد أن ألقت بنظرة إشفاق أخيرة على عشيقها .

وتركز الاتهام على ما وجده من معلومات . ألم يحدث أن تشاجر الطبيب مع زوجته لأنها قامت بشراء غسالة أطباق كهربائية ؟ نعم . حدث ولكن كان هذا منذ عشر سنوات . ألم يحدث أنهما تشاجرا لأنه اشترى سيارة «كاديلاك» بينما تريد الزوجة سيارة «جاجوار» ؟ حدث ولكن كان هذا أيضا منذ سبعة أعوام . ومع ذلك فقد اشترى لها الزوج السيارة الجاجوار بالإضافة إلى السيارة الأولى ، وسيارة جيب ثالثة . وبقيت السيارات الثلاث في حديقة بيتهما الرائعة بجانب ملعب التنس ، حيث تطل الفيلا على شاطئ البحيرة .

ألم يكن الطبيب من النوع العصبي المزاج ؟ هنا ... حكى أحد الشهود أن الطبيب من كان يشاهد التليفزيون في أحد الأيام ، وعندما جاء ابنه الذي كان يبلغ السادسة من العمر في ذلك الوقت ليداعبه غافلة منهم ... أحمر وجه الطبيب من شدة الغضب ، وأعطى لابنه ضربة قوية . هذا كل ما في الأمر .

وعند هذا الحد انتهت الشهادة وتتابع الشهود الواحد بعد الآخر ليغادر القاعة في النهاية قاعة المحكمة ، سبعة رجال وخمس نساء ، أحد عشر من البيض وواحدة فقط ملونة . وفي ملابسه الرمادية وقبعته الأبيض وكرافته السوداء ، بقي الطبيب الشاب في صورة من ينتظر العقاب ، قبعا شاحبا بدون خوف ، وتركز نظراته على القضاة وهم يجتازون الواحة بعد الآخر وأجلست القيود التي أطلقها الحارس على المعصم الجين للمتهم عبرة معدنيا بسيطا . وكان هذا دليلا على أن الجلسة قد رفعت . وبادل الطبيب النظرات مع أحبته زوجاتهم ، الذين بدهوا كما لو كانوا لا يصدقون أن هذا النزاع الطويل الذي دام ستة أسابيع قد انتهى حقا . وحمل المصعد الطبيب الشاب إلى زنزانته في الدور العلوي حيث بدأ رحلته مع الانتظار والوحدة .

بينما مصعد آخر قد حمل القضاة إلى دور أسفل حيث ملفات القضية ٢ مليون كلمة و٧٠ شاهدا ، والبحث في تحمل بلح ضأن وملاءات السرير الحمراء ، وقصاصات الأظافر والبنطلونات ، والعصا وجوارب ونساء أخرى ستحرث لمدة طويلة للتحقيق بحثا عن دليل .

وتشاورت الهيئة القضائية حول ثلاثة مسائل ، من بينها يتم اختيار واحد ، إنه قبل عدة مع ستي الإصرار والترصد وهذا يؤدي بالطبع للكرسي الكهربائي أو طلب استعمال الرأفة مع المتهم . وفي هذه الحالة يتحول الحكم أوتوماتيكيا من عقوبة الإعدام إلى المؤبد . أو أنه عدم أدى إلى الموت بدون قصد أو عمد . وتمت دراسة قائمة العقوبات بالسجن مع مجاورة القضاة بشتى الطرق لإيجاد إمكانية لاطلاق سراح الطبيب أو البراءة ، وإنها كان القرار ، فلابد أن تجمع آراء القضاة . هكذا ينص القانون الأمريكي . ترقب مائتا مليون نسمة أمريكية بشغف قضية ارمسترونج وشيا قضية كون كل واحد منهم فكرة مسبقة عن إمكانية إطلاق سراح المتهم الذي لم تثبت إدانته . وهذا لا يعني أن يحكم له بالبراءة أو أنهم يحملون له مشاعر العطف . فالصحافة لم تكن متعاطفة مع المتهم على الإطلاق . ولم تكف عن إعطاء صورة مشوهة عنه للقراء . ولكن كانت المسألة مسألة مبدأ . فلا تمكن إدانة أي إنسان بلا دليل مادي وبدون أدلة كافية .

وفي هذه الأثناء أجرت عائلة ارمسترونج تحليلها الخاص ، فافترضوا أن الطبيب المتهم قد رفض إعطاء الرجل الأشعث ، الورقين ، ولذلك جاء يقتش المنزل وفي يده قتل الطبيب ... وفي نفس الوقت ومع هذا الافتراض الجديد اعترف أحد المشكوك في الولايات المتحدة أنه دخل ليلة الحادث منزلا في نفس الضاحية . وأنه قام بقتل امرأة . ولم يهتم الباحث بتلك الدراسة التي انتهت إلى لا شيء . كما لم يهتم الصحافة أو الإذاعة أو التليفزيون أو باقي وسائل الإعلام مطلقا بهذا الاعتراف وتركزت الأنظار كلها نحو هيئة المحلفين . وأخيرا في مساء يوم الأحد ، هبط المصعد بالطبيب حيث قاعة المحكمة . ليصعد المصعد الآخر بالقضاة الذين جاءوا لينطقوا بالحكم . بعد المداولة الذين الطبيب بقتل زوجته . ولم تعرف المحكمة بالمقتل العمد مع سبق الإصرار والترصد . ولكنها أمرت باستمرار حبس المتهم .

تلقى الطبيب الشاب قرار المحكمة دون حراك واحد فقط بعض شفتيه . والتفت إلى القضاة ، وانطلق بصوت حازم قائلا :

إنني بريء ، وأصر على براءتي . وقد أتيت أمام المحكمة ، وبلا جدال ، فإنني لا يمكن أن أرتكب هذه الجريمة الشنعاء .

وبعد أن علمت والدة الطبيب بالحكم لم تحمل الصدمة ، فماتت على الفور . أما الوالد فلم يبق على قيد الحياة سوى عدة أسابيع . والأخوات زوجاتهما وقفوا متضامنين خلف المتهم ، فهم وسط عائلة ، ارمسترونج لا يتحدثون إلا عن «فضيحة» أو سجينا أو خرسا . حتى أطفال العائلة كانوا يحرمون عليهم مثل العائلة .

وأمام هذا الدفاع الحار ، لم يعبر محامي المتهم نفسه أية مرة ، وطالب بإعادة النظر في القضية حتى الفريق الباحثين في علم الإجرام الذي جاء يفيد أن القاتل لابد أن يكون أعسر ، بينما الطبيب يستعمل يده اليمنى لم يكف لإعادة النظر في القضية . وبذلك مضت تسع سنوات حتى جاء اليوم الذي طالب فيه القاضي الفيدرالي بأنه لابد أن يتمتع الطبيب بحقه في توكيل محام جديد . وبذلك تلغى إدانته وسبب موقف الصحافة وشعب أمريكا كلها ، لم يستطع القضاة تبرئة الطبيب ، ولكن أطلق سراحه بضمان مالي قدره ١٠،٠٠٠ دولار ، بشرط ألا تتخذ السلطات أي قرار في خلال ستين يوما . وبعدها يصبح إطلاق سراحه مطلقا بلا قيد أو شرط . وتحرر أن أطلق سراحه تزوج الطبيب من أمانة شابة كانت تواصله باستمرار . وبعد ستة أشهر رفض حكم الاستئناف . وألغى قرار القاضي الفيدرالي ، وطالبت المحكمة بعودة الطبيب للسجن . ولكن المتهم بعث بتحياته للمحكمة العليا بالولايات المتحدة ، ووجه دعوة للوزارة الفيدرالية للحصول على الموافقة النهائية لاطلاق سراحه أو إعادة التحقيق . وبعد أربعة أيام أخرى وافقت الوزارة على القرار الأخير .

وفتح التحقيق من جديد . وفي أوائل شهر نوفمبر عام ١٩٦٦ ، كان لابد للمحلفين من تشكيل هيئة من ستة رجال وخمس نساء والعمل المركز إحدى عشرة ساعة متواصلة حتى تم الافراج النهائي عن المتهم . وبعد أن كتب الطبيب قصة حياته حاول في يوم ١٠ نوفمبر في عام ١٩٦٧ استئناف عمله كطبيب لكنه لم يستطع العودة إلى نقابة الأطباء التي طرد منها بعد إدانته ، وجاء الطبيب ليستقر في فرنسا في «الكوت دازور» ليس بالقرب من باريس ، ولكن ليس بعيدا عن السكرتارية العامة للأنتربول ، حيث تحفظ ملفه منذ عشر سنوات ، دون أن يعرف أحد ما إذا كان الطبيب ينام ويحلم أحلاما عائلة أو يعاني من كابوس قتل زوجته .

تصميم محمد ابراهيم